سيوسيولوجيا المعرفة : الماهية والمنهج

دكتور عاطف أحمد *

تمهيـــد :

لم تعد قيمة العلم – أى علم – قاصرة على ما يقدمه من تراكمات نظرية ، قد تضيف إلى المعرفة الانسانية شيئا جديدا ، أو قد لا تضيف شيئا إلى هذه المعرفة ، بل تعّد ركاما لا قيمة له ، فلا هى مقدمة للعلم جديداً ولا هى مساهمة في تقويم المستحدث في هذا العلم ولا قديمه . لذلك ، فان الحكم على علم ما بالحركة والتقدم ، أو بالثبات والتأخر ، يكمن في يقيني فيما يقدمه هذا العلم أو لا يقدمه من مناهج جد حديثة وطرق بحث تساهم في الكشف عن الواقع وتفسير حدوث ظواهره ، فضلا عما يستحدثه هذا العلم من قضايا لم تخضع للدراسة من قبل .

وعلم الاجتماع كأحد العلوم الانسانية يحاول ، منذ أن قدّر له أن ينشأ كنسق معرفي جديد مستقل عن الفلسفة ، أن يطور مناهج بحثه . هذا فضلا عن محاولته خلق ميادين بحث جديدة بطرق ومناهج مستحدثة . ومن بين هذه الميادين ، الذي استطاع من خلالها ان يقدم نسقا معرفيا جديدا وفرعا هاما من فروعه المختلفة ، علم اجتماع المعرفة ، أو سسيولوجيا المعرفة ذلك العلم الذي يعني ، أساسا ، بدراسة العلاقة بين الفكر والمجتمع .

نشأه هذا العلم وأهم رواده :

اذا كان لماركس فضل تقديم الافكار الرئيسية لهذا العلم ، ولا سيما عند محاولته التحلل من الفكر الهيجلى كما هو واضح في عمله الموسوم الفلسفة النقدية وفي اجتهاداته الاولى التي تبلورت في محاولته اقامة علاقة بين الفلسفات من جانب ، والابنية الاجتماعية التي نشأت في ظلها الفلسفات من جانب آخر ، الا أننا نستطيع ان نرجع الاهتمام بقضايا هذا العلم الى أبعد من ذلك حيث نجد أن أول مؤرخ لهذا العلم هو أرنست جرين والدّ – كما أشارا الى ذلك ميريـّون[1] . ومما يؤكد هذا ، أن

* مدرس علم الاجتماع بكلية البنات الإسلامية في جامعة الأزهر .

اذا كانت هذه الافكار صادقة أو غير صادقة محور جدل أو نقاش . فالسؤال كان دائما هو « كيف » عضدت هـذه الافكـار ، ولم يكـن عـن « ماهية » هـذه الافكار ومضمونها [٤] .

واذا كان هذا العلم ، بصورته المنظمة ، قد ظهر من خلال اتجاهين اساسيين سادا في الفكر السوسيولوجي في القرن التاسع عشر في أوروبا وهما الفكر الماركسي في المانيا والفكر الدوركايمي في فرنسا الا أننا نستطيع أن نذهب مؤكدين مع كل من كوزر و روزمبرج أن هناك بعض الاستبصارات المشابهة والخاصة بارساء قـواعـد هذا العلم قد ظهرت بطريقة غير منظمة في القرنين السابع والثامن عشر بين المفكرين الاوروبيـين [٥].

ويشير ميرتون الى أن هناك اجتهادات أخرى تبلورت فيما قدمه علماء الاجتماع الامريكيون وأصحاب المذهب البراجماتي من اسهامات تتعلق ببعض مشكلات هذا العـلـم [٦]

والحقيقة انه من العسير علينا ان نفهم ماهية هذا العلم وحدوده اذا لم نقف على اسهامات اهم رواده ، الذين نجد ابرز تجسيد لهم في الفكرين الالماني والفرنسي ، حيث يمثل الفكر الاول بشكل خاص كل من ماركس وكارل مانهيم ، أما الثاني فيمثله دوركايم ، ومن سار على دربه كروبرت ميرتون مثلا .

والقضية الاساسية في علم اجتماع المعرفة – فيما يذكر مانهيم – هو أن هناك أشكالا من التفكير لا يمكن فهمها دون أن تفهم في أصولها الاجتماعية [٧] . وهو الامر الذي دعا ماركس [٨] دائما ، ولا سيما في عمله الخاص بالايديولوجية الالمانية ، الى البحث عن سوسيولوجيا الافكار فيقول ما معناه : اننا لكي نبحث في العلاقة بين الفلسفة والواقع الالماني ، ينبغي ان نرد هذه الفلسفة الى حدودها المادية [٩].

ولقد تجاوز كارل ماركس اهتمامه الاول بالمشكلات الفلسفية في حد ذاتها الى الاهتمام بدراسة العلاقة بين الفلسفة والمجتمع . وبعبارة اكثر دقة ، أصبح ماركس مهتما بتحليل الاسلوب أو المنهج الذي ظهرت من خلاله الافكار معتمدا في ذلك على الوضع الاجتماعى ، أو بالاحرى على الوضع الطبقى [١٠].

والسياسية لكل مرحلة من مراحل التاريخ . وخلاصة القول ، أنه على الرغم من كون الفكر الماركسى التقليدي لم يسهم في الصياغة المنظمة لسوسيولوجيا المعرفة ، الا انه قدم لها الارضية التي نهضت على أساسها والتي تمثلت في عدد من المقولات الاساسية الخاصة بهذا الفكر .

واذا كان كارل ماركس قد أسهم اسهاما واضحا في ارساء قواعد سوسيولوجيا المعرفة ، فان اسهامات اميل دوركايم والمدرسة الفرنسية في علم الاجتماع لا تقل اهمية عن اسهامات كارل ماركس في هذا المجال . ويتجلى هذا الاسهام ، اول ما يتجلى ، في دراسة « دوركايم » « وموس » عن الاشكال البدائية والتي أكدا من خلالها على أن الاصل في نشأة المقولات الخاصة بالفكر يرجع الى بناء الجماعة والى طبيعة العلاقات القائمة داخل هذا البناء . ولقد لاحظ « دوركايم » أن مقولات الفكر هذه تختلف عادة باختلاف التغيرات التي تحدث في التنظيم الاجتماعي [١٤] . كما اكدّ هذا الأخير، من خلال بحثه عن الاصول الاجتماعية لمقولات الفكر ، على أن الافراد عادة ما يكونون موجهين تجاه الجماعات التي يعيشون في ظلها ، أكثر من كونهم موجهين تجاه الطبيعة . وفي دراسة « دوركايم » عن الاشكال البدائية للفكر ، تناول بعض الانشطة الاجتماعية (الحفلات ، الاعياد ، الطقوس) وبناء البدنة . . . الـخ ، باعتبارها امورا لها دور في تدعيم الاسس الاجتماعية للفكر [١٥] .

ولم يكن دوركايم في هذا الا محاولاً تطوير تفسير سوسيولوجي للمقولات الاساسية للفكر الانساني ولا سيما في تناوله لمفهوميّ الزمن والفراغ . وهو بهذا يؤكد الدور الحاسم الذي يلعبه المجتمع في تشكيل الفكر المنطقى الذي يتكون من عدة مفاهيم تسهم في تشكيل ذلك الفكر وبلورته [١٦] .

سوسيولوجيا المعرفة بين الماهية والمنهج :

لم يقدر لعلم اجتماع المعرفة ان ترسخ دعائمه ، وتأخذ ملامحه الاساسية تتضح وتتبلور، الا على يد لفيف من علماء الاجتماع والفلاسفة والمهتمين بالفكر الانساني بوجه عام . ومن هؤلاء المفكر المجرى « جورج لوكاش » [١٧] ، والالمانيين « مـاكس شيلر » [١٨] وكارل مانهيم ، وهما في الواقع العالمان اللذان قدما اكبر اسهام في بلورة

وفي محاولة « مانهيم » تحديد طبيعة هذا العلم وماهيته ومجالاته ، يذهب الى أن سوسيولوجيا المعرفة ، كأحد الفروع الهامة لعلم الاجتماع العام ، يتسم بكونه نظرية ، وباعتباره بحثا تاريخيا سوسيولوجيا . فهو كنظرية ، يحاول أن يحلل العلاقة بين المعرفة والوجود ، وهو كبحث تاريخي سوسيولوجي ، يحاول أن يقتفي أثر الاشكال التي تتخذها هذه العلاقة ، أى العلاقة بين المعرفة والوجود في التطور العقلى للبشرية (٢٢) .

وسوسيولوجيا المعرفة – كما يتصورها « مانهيم » – تهدف من جهة الى الكشف عن المحكّات العملية التي تحدد العلاقة بين الفكر والفعل ، وتهدف من جهة أخرى الى تناول مشكلة العلاقة بين المعرفة والوجود بشكل عقلى وبطريقة تحررية غير متعصبة . ولعل الهدف الاكبر أو الامل الاكبر لعلم اجتماع المعرفة ، هو أن يقدم بطرق متطورة تتناسب والموقف المعاصر ، وتهتم بالتركيز على العوامل غير النظرية في المعرفـــة (٢٣) .

ولما كان علم اجتماع المعرفة كما يتصوره « مانهيم » نظرية من جهة ، ومنهج أو طريقة تاريخية سوسيولوجية من جهة اجرى ، فانه كنظرية يتخذ شكلين : الشكل الاول ، يعتبر هذا العلم بحثا امبريقيا (Empirical) من خلال الوصف أو التحليل البنائي للسبل التي تؤثر من خلالها العلاقات الاجتماعية على الفكر . اما الشكل الثانى ، فيعتبر هذا العلم بحثا ابستمولوجيا (Epistemological) أىبحث في المعرفة يهتم بتأثير هذه العلاقة الارتباطية على مشكلة الصدق (Validity) (٢٤) .

ويؤكد « مانهيم » على أن هذين الشكلين الخاصين بعلم اجتماع المعرفة كنظرية ليسا بالضرورة مرتبطين . فقد يقبل فريق النتائج الامبريقية دون ان يترسم النتائج البستيمولوجيه المعرفية (٢٥)

وسوسيولوجيا المعرفة كنظرية ، يمكن تناولها باعتبارها نظرية للحتمية الاجتماعية أو الوجودية (Social or Existential) للفكر الواقعى . ويمكن النظر الى الحتمية الوجودية للمعرفة (Seinsverbundenheit des Wissens) باعتبارهاواقعة (Fact) تتوسط عوالم الفكر (٢٦) .

والحتمية الوجودية للمعرفة ، تعني ، كما يذهب « مانهيم » ، أن المعرفة لا

التي يفرزها البناء الفكرى[٣٢]. ويعد هذا المنهج ، اى منهج العزوأو رد الشئ الى أصـوله – دليـلا عـلى التحول مـن المرحلية القـائمـة عـلى التخمينات الانطبـاعيـة (Impressionistic Conjectures) الى مرحلة اخرى تنهض على البحوث الامبريقية الواقعية [٣٣].

من الجلى اذن كان لكارل مانهيم رؤياه الخاصة في تناول سوسيولوجيا المعرفـة باعتبارها نظرية ومنهجا للبحث التاريخي السوسيولوجي . وتتلخص رؤياه هذه في انه ينظر الى هذا العلم باعتباره نظرية للحتمية الاجتماعية والوجودية للفكر . واذا كان ماركس قد ركز بصورة اولية على العوامل الاقتصادية والطبقية في تحديد الافكار ، فان كارل مانهيم قد تجاوز ذلك مضيفا عوامل اجتماعية اخرى كالاجيال ومكانة الجماعات ، والجماعات المهنية . . . الـــخ [٣٤].

وما يميز مانهيم عن ماركس هو ان الاول أراد تحويل ماأراد به الثاني ان يكون بمثابة وسائل للهجوم ضد فكر المعارضين ، الى اداة عامة للتحليل . ويؤكد مانهيم انما كان مجرد اداة أو سلاحا عقليا للحزب ، تحول الى منهج واداة للبحوث في التاريخ الاجتماعى والعقلى بوجه عام ، وان فكر كل جماعة ينبغي ان ننظر اليه على انه تابع من ظروف الحياة نفسها [٣٥].

وخلاصة القول ان رؤية مانهيم لسوسيولوجيا المعرفة باعتبارها نظرية ومنهجا في البحث السوسيولوجي التاريخي ترى ان كل الافكار « حتى الحقائق » ذات صلة بالموقف الاجتماعي والتاريخي الذي ظهرت من خلاله هذه الافكار وتأثرت . ولا شك ان لكل مفكر صلة بجماعات خاصة في المجتمع ، وبالتالى فانه يشغل مكانة محددة ويضطلع بدور اجتماعي معين ، الامر الذي يصبغ نظريته العقلية بصبغة خاصـــة [٣٦].

ولا شك ان فضل ما نهم على سوسيولوجيا المعرفة من حيث تطوير نظريتـه وابتداع منهج سوسيولوجي تاريخي أمر لا ينكر ، وان كان اعتمد كثيرا على ما قدمه ماركس من مقولات أساسية وقضايا نهضت على أساسها كثير من افـكاره ورؤاه الخاصة بسوسيولوجيا المعرفة . فبفضله ، أصبح لهذا العلم ملامحه الخـاصة ومنهاجه المتميز الذي ساعد على تحديده كثيرا ما قدمه لنا روبرت ميرتون في نموذجه

ويثير ميرتون تساؤلا اساسيا آخر يساهم في تشكيل النموذج القياسي الذي ابتدعه لمجال البحث في سوسيولوجيا المعرفة ، حيث يتساءل فيه عن طبيعة الانجازات العقلية التي يمكن أن تحلل سوسيولوجيا ؟ .

ويجيب ميرتون عن هذا التساؤل مشيرا إلى تلك الانجازات العقلية التي من الممكن أن تحلل سوسيولوجيا والتي يرى انها تنحصر في المعتقدات الخلقية ، والايدولوجيات ، والأفكار ، ومقولات الفكر ، والفلسفة ، والمعتقدات الدينية ، والمعايير الاجتماعية ، والعلوم الوضعية ، والتكنولوجيا . . . . . الخ «٤٢» .

ويحاول ميرتون بعد ذلك أن يبحث عن العلاقة بين الأساس الوجودي (الذي يتضمن كلا من الأسس الاجتماعية والأسس الثقافية) وبين تلك الانجازات العقلية ، فيتساءل عن الكيفية التي تعقد من خلالها الصلة بين تلك الانجازات العقلية وبين الأساس الوجودي ؟ . ويرى ميرتون أن العلاقة بين الانجازات العقلية والأساس الوجودي من الممكن أن تنهض من خلال ما يسميه أولا العلاقات السببية أو الوظيفية (Causal or Functional) بما تشتمل عليه من حتمية وتفاعل ، واعتماد وظيفي .. الخ ، ثم ما يسميه ثانيا بالعلاقات الرمزية أو العضوية ، أو ذات المعني ، وهي تتضمن الثبات ، والانسجام ، والتماسك ، والوحدة ، والكفاءة ، الملاءمة والتعبير ، والادراك ، والتعبير الرمزي Strukturzusammenhang الخ «٤٣» .

وتعد مشكلة العلاقة القائمة بين كل من المعرفة والأساس الوجودي نواة لأي نظرية في علم اجتماع المعرفة . وتظهر هذه المشكلة بشكل جلي خلال عملية التطبيق . وان أي دراسة للعلاقة بين المعرفة والمجتمع لابد وأن تفترض نظرية كبري للمنهج السوسيولوجي وللسببية الاجتماعية «٤٤» .

وبعـــد ،

لعل الملاحظ حول ما قدمه كلٌّ من مانهيم وميرتون من رؤى وأفكار خاصة بتصورهما لسوسيولوجيا المعرفة كنسق معرفي أنه يدرك بالرغم من اختلاف المنطق النظري لكل منهما وتباين الرؤية الفلسفية والايديولوجية لمشكلة علاقة الفرد بالمجتمع وطبيعة المجتمع بما يتضمنه من عدة عناصر وجماعات . كذلك ، يقف كل منهما

الحواشي

(1) Robert K. Merton, **Social Theory and & Social Structure** (N.Y.: The Free Press of Glencoe, 1962), p.456.
(2) Lewis A. Coser and B. Rosenberg, (eds.), **Sociological Theory: A Book of Reading** (London: The MacMillan, 1968), p.662.
(3) Karl Mannheim, **Ideology and Utopia: An Introduction to the Sociology of Dnowledge,** translated by lowis Wirth and Edward Shills (N.Y: Harvest Books, 1936) pp.309-310.
(4) Merton, **op.cit,** p.456.
(5) Goserand Rosenberg (eds.), **op.cit.,** p.667.
(6) Merton, **op.cit.,** p.457.
(7) Mannheim, **op.cit.,** p.3
(9) Coser and Rosenberg (eds.) **op.cit.,** p.667
(10) **Ibid,** p.668
(11) **Ibid,** p.669
(12) **Ibid.**
(13) Mannheim, **op.cit.,** p.309
(14) Merton, **op.cit.,** p.465
(15) **Ibid,** p.466
(16) Coser and Rosenberg (eds.) **op.cit.,** p.673.

(١٧) يصيب كارل مانهيم على لوكاش أنه وقع في الخطأ نفسه الذي انزلق فيه ماركس من قبل ، من حيث أنه لم يميز بين عملية كشف النقاب عن الأيديولوجيات من جهة ، وبين علم اجتماع المعرفة من جهة أخرى . (أنظر كارل مانهيم ، **الأيديولوجية واليوتوبيا** ، ص ٣١٠) .

(١٨) يذهب مانهيم الى أن محاولات شيلر تتلخص في أنه حاول أن يقوم بعملية تكامل بين علم اجتماع المعرفة من جانب ، وبناء النظرية الفلسفية للعالم من جانب آخر . ويعيب مانهيم عليه أن انجازاته في هذا الصدد ، كانت موجهة توجيها ميتافيزيقيا ، حيث أنه تجاهل الصراعات الداخلية الخاصة بهذا الاتجاه العقلي كما تجاهل التطبيقات والمشكلات الجديدة التي تنبثق من خلال هذه التطبيقات . (أنظر كارل مانهيم ، **المرجع نفسه** ، ص ص ٣١٠-٣١١) . ومضمون تصور شيلر لسوسيولوجيا المعرفة تتلخص في أنه ليس هناك أي متغير ثابت ومستقل يحدد انبثاق الأفكار وبزوغها . حيث أنه لكل مرحلة تاريخية عوامل محددة للأفكار أو كما يسميها « العوامل التحقيقية » . ففي الجماعات البدائية ، نجد طاقما معينا من العوامل هي التي تحدد أفكار هذه الجماعات وتعمل على صياغة معرفتها . وهذه العوامل هي روابط الدم والقرابة ، والتي تعتبر متغيرا مستقلا . أما في العصر الحديث ، فيرى شيلر أنه من الضروري أن تؤخذ العوامل الإقتصادية في الاعتبار باعتبارها متغيرات مستقلة مرتبطة بأبنية الفكر .
أنظر : لويس تورز ، **النظرة السوسيولوجية** ، ص ٦٧٢).

(19) Mannheim, **op.cit.,** 0p.2.
(20) **Ibid,** p.3
(21) **Ibid.**
(22) **Ibid.,** p.264.
(23) **Ibid.,** p.264.
(24) **Ibid.,** p.266.
(25) **Ibid.,**
(26) **Ibid.,** p.267.